فضيلة الحكمة

تأليف الإمام الحكيم ، والغوث العظيم ، القمر الفاطمي الأزهر ، والبدر الكامل الأنور
حُجة الله على أوليائه في عصره ، ونتيجة المفاخر في دهره
سيدي ومولاي السيد محمد أبي الهدى افندي الصيادي الرفاعي رضي الله عنه

بتوجّهات مدير الدائرتين ، وهمّة القائم في الرحبين
ونائب الأقطاب الوُرّاث ، أبناء الإمام أبي العَلمين
القائم بنشر العِلم والحال المحمدي ، ورافع لواء الطريق الرفاعي الأحمدي
سيدي صاحب الفضيلة الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة حفظه الله وأيّد به الاسلام والمسلمين

عني بكتابتها وتحقيقها وترتيب جمعها ، واكرم بتصحيحها والإشراف على سير طبعها
طفيلي مائدة الآل ، والمستشرف بأعتابهم عند نُوّابهم لخدمة النعال
أفقر الورى ، وأحقر من ترى
عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط
السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هجرية

على نفقة جامعها وأخيه في الله المحسن الفاضل الحاج محيي الدين غنام أحسن الله للجميع الختام

توزع مجاناً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وتابعيه وأحبابه اجمعين .

امـا بعد فيقول العبد المفتقر الى كرم الكريم الهادي ، محمد ابو الهدى الصيادي غفر الله له ولوالديه ، وأحسن بدار الجزاء جزائهم يوم القدوم عليه ، والمسلمين انه الموفّق المعين . هذه رسالة وجيزة سميتها (فضيلة الحكمة) فيها جمُل لطيفة ، وتُحف شريفـة ، ينتفع بها المحبون ، ويستعذبها العارفون ، والموفّق الله ، وعلى كل حال الحمد لله .

ومن المعلوم أن لفظ الحكمة اصطُلح له على معان عند فِرَق مختلفة. منهم من صرفه للطب ، ومنهم من صرفه للرياضيات ، ومنهم من قال : هو العلم بالله وبآيات الله ؛ ومنهم من قال : بل هو المداراة للناس ؛ ومنهم من قال : بل هو العلم بأسرار القرآن ورقائقه ؛ وقال أُناس : هو السلوك والتريّض ومعاناة النفس بتهذيبها وتأديبها .

ويجمع كل ذلك اتباع النبي ﷺ في النص (ويعلمكم الكتاب

والحكمة) و(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقد قال ﷺ « جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء وخالطوا الحكماء » فالكبراء هم الشيوخ الذين جرّبوا الأُمور ، وعاركوا الزمان ، ووقفوا على دقائق الوقت ، فذهبت خِفّتهم ، وسكنت حِدّتهم . والعلماء هم العاملون بالكتاب والسُّنة ، العاملون بها ، المتحققون بصدق الاتباع للنبي المطاع ﷺ ؛

والحكماء هم المهذّبون الكاملون القائلون المحفوظون في أحوالهم ، المتقنون لأفعالهم ، المصيبون في أقوالهم . ففي مخالطتهم تهذيب للأخلاق ، وتقويم لاعوجاج النفوس ، وفي مُسائلة العلماء عمّا يعرض للمرء من الأحكام وصول للحق الذي أراده الحق ، ولذلك قيل : من قلّد عالماً لقي الله سالماً . وفي مجالسة الكبراء من الشيوخ ـ المراعين لحدود الله الموفين بعهده ، القائمين بمراسم الشريعة ، الذين إذا رؤوا ذكر الله ـ حفظ للأحوال ، وسلامة في الدين والدنيا ، وأمان إن شاء الله من زلّة القدم في المعاملات الدينية والدنيوية .

وقال جماعة من العارفين حكماء الحضرة الملهمون المحدّثون ـ بفتح الدال المشدّدة ـ وأُولئك الذين يُلقى في نفوسهم من أسرار المُلك والملكوت أشياء بالإلهام الرباني فيجري الصواب على ألسنتهم بمحض

التوفيق الإلـهي لما يُلقى في روعهم من العـــالَم الأعلى وتلك كرامة يكرم الله بها من يشاء من عباده الصالحين ، ومرتبة رفيعة يتحف بها الخواص من الصديقين ، وهو وليّ المتقين .

والحكمة الوقوف في كل عمـــل في الطريق الوسط لا إفراط ولا تفريط . وقد سأل اعرابي رسول الله ﷺ هل يترك ناقته بلا قيد ويتوكل ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام « قيِّد وتوكَّل » وفي رواية « إعقلها وتوكَّل » فهذا النص العالي المحمدي نظام الحكمة الشريفة فإنه أمر بإعطاء العقل حقه من إعقال الناقة بالتدبير البشري ، وبإعطاء القلب حقه من الإيمان بالفعل الإلـهي ! .

قال شيخنا خاتمة المحققين والصديقين ، وسيد الحكماء من أولياء العصر المقربين ، أبو المفاخر والبراهين ، السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الشهير بـ (الرواس) رضي الله عنه :

كل المعاني التي اصطُلح عليها ووجِّهت للفظة (الحكمة) صحيحة بنسبة طُرقها ولكن أشرفها الحكمة النظرية المندمجة بالأسرار الربانية ، والإشارات المحمدية فإن فيها من العبرة بالمصنوعات ، والرحمـــة للمخلوقات ، والكلام بالآيات البينات ما يثلج صدر العاقل ! انتهى كلام السيد الرواس رضي الله عنه .

وهنا تفصيل في إجمال قالوا : الحكمة استكمال النفس الإنسانية بتحصيل ما عليه الوجود ، وذلك إدراك الأُمور الموجودة في النفس التي لم تتعلق بها قدرة الانسان واختياره إدراكاً تصويرياً أو تصديقياً .

وقالوا أيضاً : الحكمة كمال النفس بكمال حاصل ما يطلب ، فإن الكمال الحاصل للنفس لا بالطلب وإن عُـــدّ حكمة فإنه من أقسام الوهب .

وقالوا : الحكمة تحصيل ما عليه الوجود ، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يعمل من الأعمال ، ومما ينبغي لتصير النفس كاملة متضاهية مع العالَم العقلي ، مستعدة للسعادة القُصوى الأُخروية بحسب الطاقة البشرية ، وهي إن تعلّقت بالأُمور التي الينـا أن نعلمها وليس لنا أن نعملها سُميت حكمة نظرية ، وإن تعلقت بالأُمور التي إلينا أن نعلمها ونعملها سميت حكمة عملية ، وكلّ من الحكمتين ينحصر في أقسام .

أما النظرية فالذي لا يتعلق بأعمالنا منها إما أن لا تكون المادة شرطاً لوجوده أو تكون شرطاً لوجوده ، وهناك إما لا تكون تلك المخالطة شرطاً لتعلّقه أو تكون .

فالأول وهو ما لا تكون مخالطة المادة شرطاً لوجوده هو العلم الإلـهي وهو الذي يبحث فيـه عن الاسباب الأُولى للجسم الطبيعي

والتعليمي وما يتعلق بها ، وعن سبب الأسباب ، ومبدأ المبادي وهو الله تعالى ، والمادة إما من الذات فمثل ذات الحق تعالى ، وإما من الصفات فمثل الهوية والوحدة والكثرة والعلّية والمعلولية والكلية والجزئية ، وما أشبه هذه المعاني ؛ فالعلم الإلهي وجوده لا يتوقف على مخالطة تلك المواد ، وقولنا العلم الإلهي هو تسمية الشيء باسم أشرف أجزائه وهو العلم الأعلى .

والثاني وهو أن تكون المخالطة شرطاً لوجوده دون تعقّله هو الرياضي ، وهو العلم الأوسط قال السيد رحمه الله : ولقائل أن يقول إن إرادته لا حاجة في تعقّل الرياضيّات إلى المادة أصلا ففيه بحث غايته ان لا حاجة إلى تعقّل مادة مخصوصة فإن الكُرَة يمكن تُتعقّل من خشب أو حديد وإن أراد عدم الاحتياج إلى مادة مخصوصة فمسلّم ولكن بمقدار يُشكّل بالمقدار والصورة الجسمية المبحوث عنها في العلم الطبيعي فإنها لا يحتاجان في تعقّلها إلى مادة مخصوصة .

والثالث وهو أن تكون المخالطة شرطاً لوجوده وتعقّله وهو العلم الطبيعي ، وهو العلم الأسفل ، واما العملية فلأنّ ما يتعلق بأعمالنا إن عُلم بالتدبير الذي يختص بالشخص الواحد فهو علم الأخلاق ، وإلاّ فهو علم تدبير المنزل إن كان مما لا يتم إلاّ بالاجتماع المنزلي ، وعلم

السياسة ان كان مما لا يتم إلاّ بالاجتماع المدني ومبادي هذه الثلاثة ولُبابها حكماً ونصاً وبياناً كل ذلك معلوم من قِبَل صاحب الشرع ﷺ وجهتها جهة الشريعة الإلهية ، وفيها فائدة الحكمة الخُلُقية ليعلم الإنسان الفضائل وكيفية اقتنائها فيزكي بها النفس والله تعالى قال (قد أفلح من زكّاها) وليعلم الرذائل وكيفية توقّيها فيطهِّر النفس من دسائسها وقد قال الله تعالى (وقد خاب من دسّاها) وفائدة العلم المنزلي ان يعلم المشاركة التي ينبغي أن تكون بين اهل منزل واحد ، لينتظم بها أمر المصلحة المنزلية في كل شؤونها كالمعيشة والعِشرة بين الزوج والزوجة ، والوالد والولد ، والمالك والعبد . وفائدة العلم المدني أن يعلم كيفية المشاركة التي تقع بين آحاد الناس كي يتعاونوا على مصالح الأبدان ، وبقاء نوع الانسان ، وهذا العلم اعني المدني ينقسم على قسمين :

الأول يتعلق بالمُلك والحكومات ، والسلطة العامة ويُسمى علم السياسة .

والثاني يتعلق بالنبوّة والشريعة ويُسمى علم النواميس ، والناموس السُّنة أو الطريقة والمثال القائم الثابت بنزول الوحي ، والعرب تسمي

الملَك النازل بالوحي ناموساً ، وليس المراد بالناموس ما يظنه بعض العامة من أنه الحيلة والخديعة .

ثم إن البعض جعل أقسام الحكمة العملية اربعة ، ولا يناقض هذا قول من جعلها ثلاثة لدخول قسمين منها تحت قسم واحد ، ومنهم من جعل اقسام الحكمة النظرية أيضاً أربعة بحيث انقسام المعلومات ، فإن المعلوم إما أن يفتقر الى مقارنة المادة الجسمية في الوجود العيني او لا ، والأول إن لم يتجرد عنها في الذهن فهو الطبيعي ، وإلاّ فهو الرياضي . والثاني إن لم يقارنها البتة كذات الحق والعقول والنفوس فهو الإلـهي ، وإلا فهو العلم الكلي والفلسفة ، قال في المحاكمات : الفلسفة في اللغة اليونانيـة هي التشبه بحضرة واجب الوجود في العلم والعمل بحسب الطاقة البشرية لاستحصال العادة الابدية ، فالفلسفة الأُولى كالعلم بالوحدة والكثرة والعلة والمعلول وأمثالها مما يعرض للمجردات تارة وللأجسام أُخرى وذلك بالعرض لا بالذات إذ لو افتقرت بالذات الى المادة الجسمية ، لما انفكت عنها ولما وُصفت المجرّدات بهـا ، وكل هذه الأقسام تشحيذ لذوات العقول ، تستكمل النفوس بواسطة ذوات العقول بها الكمالات الواجبة الاستحصال والله تعالى قال (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يُؤتى الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً) وقولنـا

من حيث النسبة الى أمره الخاص سبحانه هي وجهه . وقال آخرون : المقصود من كل شيء أشرف الأشياء واكرمها على الله وذلك هو النوع الانساني ووجهه رسول الله ﷺ وتأوّل بعضهم معنى الآية الكريمة اعني قوله تعالى (كل شيء هالك إلاّ وجهه) بوجوه :

منها ان كل شيء هالك إلاّ وجهه الذي هو ملكوت ذلك الشيء أي حظه عن عالم الأمر فهذا لا يمسّه الهلاك لأنه محفوظ بالقدرة الكاملة.

ووجه آخر : الاستثناء من ضمير (هالك) المسند لله المستتر تحته ، ورجوعه الى كل شيء بقرينة السياق والسباق فإذا كان الضمير راجعاً الى كل شيء فيكون وجه كل شيء مصوناً من الهلاك ووجه الشيء حظه من صبغة الأمر وانجلائها فيه ، وإن قيل رجوع الضمير الى الله تعالى فيكون المراد به وجه الله وهو سبحانه واجب ابديّ ازليّ ابديته وأزليته سبحانه صفتان مختصتان بذاته المقدسة فيكون حينئذ المعنى إن وجوب وجوده من ذاته تعالى لا من غيره إذ لا غير في الأزل يقطع ، ولا غير في الأبد يصل ، والموجودات بأسرها حادثة وهو تعالى القديم الأزلي بلا بداية والأبدي بلا نهاية .

ووجه آخر : العالم الأمري باق له اول ، وليس له آخر لأنه موجد من لا شيء بلا واسطة بل بأمر (كن) وكل شيء موجد من لاشيء بلا واسطة بأمر (كن) باق له أول وليس له آخر لأن

الحق ، والأمر بديهي فإن اشتغال النفس بالمحسوسات يمنعها عن الاشتغال بالمعقولات بل ولا تجد منها اعني المعقولات بعد انهماكها بالمحسوسات لذة ولا تقضي منها وطر رغبة ، ومثال ذلك أن العين لا تطلب الطعام، والأذن لا تطلب النظر ، والعِنِّين لا يميل الى الجماع، والأصم لا يلتفت الى السماع، والنفس إذا لم تتهذب بالآداب المحمدية ، والمعارف الفرقانية ، وتأخذ حظها من الاتّباع لسيد اهل الحق ، وصاحب الأمر المطاع المطلق ﷺ لا يمكن لها الدخول في حضرات القدس ، ولا يتأتّى لها شق سجف الحقائق، ولخبر « من عرف نفسه فقد عرف ربه » لأن الإنسان يقدر على الترقي من معرفة نفسه إلى معرفة خالقها ، وعلة ذلك ان الله تعالى جمع في الآدمي مثال جميع العالَم حتى كأنه نسخة مختصرة للعالَم كله يشهد لذلك الحس ، ويؤيّد هذا المعنى قول الأمير إمام الدين ، ويعسوب المسلمين ، سيدنا عليّ المرتضى كرم الله وجهه ، وأتحفه برضوانه وسلامه وهو :

دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر
وتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالَم الأكبر

ولعظم شان الإنسان عدّه بعض اهل العرفان ، وجه الأشياء حتى قال بعض الحكماء الربانيين : الإنسان وجه كل شيء ووجهته الى الله

فجميع ما في عالم الخلق من المكوّنات فانٍ ، ومعنى التكوّن الذي هو صبغة الأمر باقٍ يدلك على هذا قوله تعالى (بيده ملكوت السموٰات والأرض) فحكم انطواء ملكوت السموات والأرض بيده سبحانه باقٍ والسموٰات والارض تفنى جميعاً وإليه المصير (وهو على كل شيء قدير) هذه الآيات الكريمة تفيد فناء كل شيء سوى القدير المصوِّر البارىء الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

وإذا أخذنا بالتأويل كمن قال إن القصد من كل شيء أشرف كل شيء ، وإذا هلك الأشرف فهلاك ما دونه لابد منه ، والمستثنى وجه الأشياء الذي أشرفها وهو رسول الله ﷺ فلهذا التأويل معنيان .

الأول الهلاك اللغوي وهذا يشمل كل شيء ، ويشمل المصطفى ﷺ بدليل قوله تعالى (إنك ميّت وإنهم ميّتون) وقوله تعالى (أفإن مات أو قتل) .

والثاني وهو الاصطلاحي : ظهور آية القهر في الاشياء ففيه نظر لأن الأنبياء والمرسلين إخوان نبينا الأمين عليهم صلوات رب العالمين، وعباد الله الصالحين الذين سبقت لهم من الله الحسنى كلهم مُستثنون من هذه الإشارة ، ويبقى هناك معنى وهو يحتمل التسليم ، وهو ان الهلاك المقصود من قوله تعالى (كل شيء هالك) أي منقضٍ حكم

أمر (كن) الذي تعلّق بالموَجد من لا شيء بلا واسطة على وجه التأبيد قديم لأن أمر (كن) المتعلق بالعالَم الامري تعلقاً ابدياً هو ايضا قديم إذ العالَم الأمري الذي تعلّق به أمر (كن) القديم تعلقاً ابدياً موَجد من لا شيء بلا واسطة بأمر (كن) وكل ما هو شأنه كذلك فهو باق ، فعالَم الأمر باق وما انبجس عنه من المكوّنات فصبغة الأمر التي انشأتها باقية لها أول بنسبة الحادثات وليس لها آخر ، وعلة أبدية التعلق هو المستثنى بـ (إلاّ) في قوله تعالى (إلاّ وجهه) كما ان الحياة اتصال الأرواح بالأبدان حتى تعلقها بها فيكون بينهما تقابل تضاد ، وإن العالَم الأمري المكوَّن لازم البقاء لأن أمر (كن) القديم تعلق به تعلقاً ابدياً لاقتضاء البقاء المستفاد من الآية وكل ماهو تعلقه به ابدي فهو لازم البقاء ، ولا مجال للمنع فثبت البقاء إذاً ، وكما لا شبهة في أن العالَم الخلقي فانٍ بمقتضى ما قبل الاستثناء فكذلك صبغة الامر باقية بحكم الاستثناء .

قال شيخنا القطب الأعظم السيد بهاء الدين محمد مهدي الصيادي الرفاعي الشهير بـ (الرواس) رضي الله عنه : وقد يشتبه القاصر فلم يفرق بين صبغه الأمر ، ونتيجة الأمر فالصبغة طرز التكوين ، والنتيجة المكوَّن فطرز التكوين باقٍ والمكوَّن فانٍ .

قوله تعالى (قل يحييها الذي أنشأها أول مَرَّة) فالإنشاء سبق الإحياء والصفتان قديمتان وبالذات قائمتان ، والسبق واللحوق بنسبة المنشأ والمحيا وهذه المعاني اللطيفة التي بسطناها لما كانت من جواهر الحِكم التي تدل على شرف الحِكمة المؤيدة أتينا بها إجلالا لقدر العلم ، والعلم أجلّه الحكمة الربانية المشتملة على الحقائق الكيانية ، والمعارف الرحمانية فمن أراد به الله خيراً فتق رتق قلبه بالحكمة المحضة وجعله من المؤيَّدين بها جاء في الخبر «من أخلص لله أربعين صباحاً تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه وجرت على لسانه »ومن أخلص لتتفجر لم تتفجر وفي الآثار «رأس الحكمة مخافة الله» وبخوف الله يكمل الاخلاص، وإذا حلّ خوف الله في القلب خشعت الجوارح لعظمة الله وسلطانه ، فوقف المرء عند حدود الله ، ولم يعمل إلاّ بما أمر الله ، وكف أذاه عن خلق الله ، واستعمل نفسه بما يرضي الله، وانتشر نور الحكمة الإلهية من قلبه على وجهه ، فصدق في قوله وفعله ، وغاب لمرضاة ربه عن قِلّه وجُلّه، وعشيرته وأهله ، وانتظم بسلك الحكماء الربانيين الذين يقولون حقاً ، ويحكمون عدلاً ، ويخشون الله ، ولا يخشون سواه .

وقال شيخنا الامام السيد محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي رضي الله عنه : لُباب الحكمة القناعة المطوية على علوّ الهمة في الله

مدده إلا وجه الأشياء أعني المصطفى ﷺ فإنه لا ينقضي مدده بدليل الشفاعة الكبرى ، وإن نازع فيها المحققون فبطلان كلامهم ظاهر ، والقول المتصور بحصولها له عليه الصلاة والسلام جليّ وباهر والله المعين.

وتدبَّر حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « ان مَلك الموت يقبض الروح والله يتوفى الأنفس حين موتها » فالمراد بالروح هو الجسم اللطيف ، وبالأنفس الجواهر الـتي هي النفوس المجردة المقبوضة لله تعالى حين مفارقتها الدنيا ؛ فالقبض صفة ملك الموت بأمر الله تعالى ، والمتوفي للأنفس هو الله لأنها من أمره فتعود اليه ، وهو يصرف سعيدها لمحله ، وشقيّها لمحله وله الخلق والأمر فهذه صبغة الأمر التي تعود له سبحانه . فسبحان من جعل النفس مرقاة لمعرفة خالقها تعالت قدرته ، وبأسرار هذه المعاني يفهم اللبيب سر الأثر أعني « من عرف نفسه فقد عرف ربه » والحمد لله رب العالمين . انتهى كلام شيخنا رضي الله عنه وعنا به ونفعنا والمسلمين بعلومه الشريفة آمين .

ولا يخفى أن الإنشاء صفة سبق والإحياء صفة تدارك وكلاهما في عالَمه قديم ، ولا يُفهم من هذا القول بتعدد القِدم بل كلها صفات قائمة بالذات كقيام الظل بالشاخص ، لا هي عين ، ولا هي غير ، وظهور آثارها فهو نسبة الحوادث في السبق واللحوق يدلك على هذا

نُقِلت عن نسخة المؤلف الإمام الحكيم ، والغوث العظيم ، القمر الفاطمي الأزهر ، والبدر الكامل الأنور ، حجة الله على اوليائه في عصره ، ونتيجة المفاخر في دهره ، سيدي وقرة عيني وتاج رأسي ومولاي السيد محمد ابي الهدى افندي الصيادي الرفاعي أمدّ الله في ايام حياته ، وأعاد على المسلمين من عميم بركاته .

بقلم عبده الأحقر ، وخادم نعاله الأصغر محمد نورس الكيلاني الحسني سقاه الله من خمر إتحافه بكأسه الهني .

وذلك في اليوم السابع من شهر محرم الحرام سنة ١٣٢٤ بالهجرة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى التحية .

وأنشد متمثلاً :

قنعت من الدنيا بلقمة يابسٍ ولُبس عباءٍ لا أُريد سواهما
فإني رأيت الدهر ليس بدائمٍ فدهري وعمري فانيان كلاهما

أقول : فإذا تحلّى العبد بأخلاق القوم علت همته في الله ، وقنع بما رزقه الله ، فقد جمع بين الزهد والمجد ، وهذه جملة تحتاج الى تفسير، ومختصر المعنى ان القناعة المطوية على علو الهمة لم تكن مخذولة بالكسل ، ولا مخزيّة بطول الأمل، بل هي على نسق زُهد رسول الله ﷺ أعرض بنفسه الطاهرة عن هذه الدنيا الدنية وعمل للأُمّة ، فإعراضه عن الفاني إعراض من يجزم بأنه في طرفة العين يلاقي الله ، وعمله للأُمّة عمل من يجزم أنه لا يموت ، وهكذا السلف الصالح رضي الله عنهم ، وهذا السر المطوي في كلام شيخنا إمام الزاهدين في زمانه ، ورئيس أهل هذا الشأن من أولياء العصر وأعيانه رضي الله عنه وعنهم اجمعين .

إلى هنا وانتهى بنا الكلام في هذا المقام ، والمسؤول من كرم الله وفضله ان يحسن لنا وللمسلمين الخواتيم ، انه بَر كريم، يغيث المستغيثين، ويستجيب دعاء المضطرين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.